Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني

سورة يوسف أنموذجا

The deliberative dimensions of the Quranic discourse Surat Yusuf as a model

فتيحة غزال fatiha ghezal1، محمد قراش mohammed Qarash 2
1جامعة عمار ثليجي – الأغواط- (الجزائر)، f.ghazal@lagh-univ.dz
2جامعة زيان عاشور – الجلفة - (الجزائر)، mkerrache@yahoo.fr
المؤلف المرسل: فتيحة غزال fatiha ghezal الإيميل: f.ghazal@lagh-univ.dz

تاريخ الاستلام: 2020-12-15 تاريخ القبول : 2021-04-05

ملخص:

تروم هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن الظواهر اللغوية التي تعد في صميم الدرس التداولي الحديث كظاهرة الأفعال الكلامية والاستلزام الحواري والحجاج، التي يزخر بها الخطاب القرآني في سورة يوسف، فكيف يتجسد الخطاب الحجاجي في القصص القرآني عامة وفي قصة النبي يوسف عليه السلام على وجه الخصوص ؟

كلمات مفتاحية: التداولية، الاستلزام الحواري، أفعال الكلام الحجاج، سورة يوسف.

Abstract :

This research paper aims to reveal the linguistic phenomena that are at the core of the modern deliberative lesson, such as the phenomenon of verbal actions, dialogue and pilgrimage, which the Qur'an discourse abounds in Surat Yusuf.

Keywords: deliberative, conversational imperative, speech verbs Al-Hajjaj, Surat Yusuf

مقدمة :

تعتبر التداولية واحدة من أهم المواضيع التي لها أهمية كبيرة في مجال اللسانيات، فهي ضرب من ضروب الدراسات التي تعمل على قراءة النصوص الأدبية قراءة معاصرة اعتمادا على بعض المناهج اللسانية الحديثة، كما أنها تعتبر من إفرازات المعرفة في ساحة الدراسات اللسانية كونها تيار تداولي يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق استخدام العلامات اللغوية والسياقات، ويقع مفهوم الأفعال الكلامية في موقع متميز من هذا التيار اللساني الجديد، إضافة إلى نظرية الحجاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية.

ويهدف هذا المقال إلى رصد الأبعاد التداولية في النص القرآني اعتمادا على الأدوات الإجرائية للتداولية، متمثلة في أفعال الكلام والاستلزام الحواري وتقنية الحجاج، وانطلاقا من هذا المبدأ وفي هذا السياق بالذات تتضح لنا إشكالية محورية تتمثل فيما يلي :

كيف تجلت الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني بسورة يوسف ؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة نطرح أيضا جملة من التساؤلات: ماهية التداولية ؟

وكيف يتجسد الخطاب الحجاجي في سورة يوسف؟ إضافة إلى البحث عن آلية الاستلزام الحواري في استيحاء المعاني والدلالات في هذه السورة. وقد اقتضى موضوع المقال أن يكون المنهج المتبع هو المنهج التداولي في تقصي الأبعاد التداولية في الخطاب القرآني بما فيها مبادئ الاستلزام الحواري وأصناف الحجاج فيه.

ماهية التداولية :

لغة : يعود أصل كلمة التداولية "pragmatigue" إلى الكلمة اليونانية "pragmatikos" واللاتينية "pragmaticus"، ومبناها على الجذر "pragmatigue"،ومبناها على الجذر "pragma "، ومعناها الفعل "actio"، وبفعل اللاحق صارت تطلق على كل ماله

نسبة إلى الفعل أو التحقق العملي، ومنه يقال سياسة عملية "pragmatigue politigue"، ونظرية عملية "pragmatigue theorie"،كما أنها تعني المرسوم أو المنشور في اللغة الفرنسية "pragmatigue sanction "، ثم دخلت بمجالات أخرى كالدراسات الفلسفية والأدبية، لتصل إلى اللغة المستعملة للدلالة على كل ما هو عملي[1].

يعود مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللغوي " دَوَل " وله معان مختلفة لكنها لا تخرج عن معاني التحول والتبدل، فقد ورد في :

- لسان العرب لابن منظور(ت711ه) "دول" : ((الدَّولة والدُّولة : العُقبة في المال والحرب سواء وقيل الدُّولة بالضم في المال، والدَّولة بالفتح في الحرب، وقيل هما سواء فيهما، يضمان ويفتحان، وقيل هما لغتان فيهما، والجمع دُول ودِول. وقيل تداولنا الأمر: أخذناه بالدُول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر ... ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة ، وتداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاوناه فعمل هذا مرة وهذا مرة))[2].
- معجم أساس البلاغة للزمخشري (ت 538 ه) : ((دول : دالتْ له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم: جعل الكثرة لهم عليه ...، وعن الحجاج : إن الأرض ستدال منا كما أدلنا منها ...، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم، والدهر دُوَل وعُقَب ونُوب، وتداولوا الشيء بينهم، وأُديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأُديل المشركون على المسلمين يوم أحد ... والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم وتداول الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه يراوح بينهما، وفعلت ذلك دواليك أي كرات بعضها إثر بعض))[3].

التداولية لغة من مصدر تداولا : يقال دال يدول دولا : انتقل من حال إلى حال، وأدال الشيء جعله متداولا ، وتداولت الأيدي الشيء أخذته هذه مرة وتلك مرة[4].

فقولنا مثلا تداول الناس الخير بينهم أي تحادثوا فيه بعضهم مع بعضهم الآخر في سياق معين وصولا إلى مستصفى الفائدة منه.

ومن شواهد استخدام هذا المصطلح في القرآن الكريم قوله تعالى: ((إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القومَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَامُ نُدَاوِلُهَا بَينَ النَّاس ...))[5].

وقوله تعالى: ((مَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابن السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دَولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ))[6].

اصطلاحا :

إن أقدم تعريف للتداولية تعريف شارلز موريس (Charles Morris) سنة 1938م، عند دراسته للرموز اللغوية اعتبرها جزء من السيميائية "Semiotic" ، عندما ميز بين ثلاثة فروع يشتمل عليها علم العلامات :

- علم التراكيب:Syntactics أو Syntax: يدرس العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها من بعض .
- علم الدلالة :Semantics : وهو دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها .
- التداولية : Pragmatics : وهو دراسة علاقة العلامات بمفسريها أو مؤوليها[7].

أما التداولية عند العرب فهي نظرية غربية وافدة، عمل العلماء العرب على دراستها وترجمة أهم الأسس والمبادئ التي قامت عليها، فقدموا مجموعة من التعاريف للتداولية، منها ما هو مترجم ترجمة حرفية ومنها اجتهادا يدل على استعابه وفهمه له، وأول من استخدم مصطلح التداولية هو" طه عبد الرحمان "، حيث يقول: ((وقع اختيارنا سنة 1970م على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا"، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيين " الاستعمال والتفاعل" معا، وقد لقي قبولا لدى الدارسين الذين أخذوا يرجونه في أبحاثهم)).

ويعرفها مسعود صحراوي على أنها ليست علما لغويا محضا بالمعنى التقليدي كما يكتفي بوصف تفسير البنى اللغوية ويتوقف عند حدودها وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج،

من ثم مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره، فهي نسق معرفي استدلالي يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية الخطابات ضمن أحوالها التخاطبية، ويقابلها باللسانيات التداولية البنيوية، فإذا كانت هذه الأخيرة تدرس اللغة بوصفها بنية مجردة أو نسق مجردا تحكمه قوانينه الداخلية فإن التداولية تدرس اللغة بوصفها علما تخاطبيا تواصليا يعني بالأبعاد الخطابية الاستعمالية للغة))[8]

مدى تجسيد الحجاج للنسق الإقناعي في سورة يوسف :

يبدو أن الهدف التداولي من الحجاج هو تحصيل الإقناع على حد قول برلمان وزميله في أذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو غاية كل حجاج، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها، وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل فيرى اللحظة الملائمة))[9]

ومن هذا المنطلق كان لابد لي من بيان مدى تجلي الطابع أو نسق الإقناع في سورة يوسف على ضوء القياس والاستدلال ودلائل العصمة (المطلب الأول) ، ثم توضيح دلائل الإقناع في أواخر سورة يوسف (المطلب الثاني) .

المطلب الأول: القياس والاستدلال ودلائل العصمة تأكيد للنسق الإقناع في السورة :

لقد أكد الله عز وجل في الخطاب القرآني دور الحجة في الإقناع وطرقه المختلفة في أكثر من موضع[10]، وسأركز على كل من القياس والاستدلال ودلائل العصمة في بيان نسق الإقناع في سورة يوسف.

أولا : تقنيات القياس والاستدلال في السورة :

يعد كل من القياس والاستدلال من التقنيات الحجاجية التي تحقق الإقناع وموضعه في سورة يوسف قوله تعالى: ((وَاسْتَبَقَا البَابَ ..... إِنَ كَيْدَكُنَ عَظِيمٌ))[11].

من خلال قراءتنا للآيات يبدو أن الله تعالى بعد ذكر امتناع يوسف عليه السلام عما أرادته امرأة العزيز، لما رأى برهان ربه الذي أدرك من خلاله أن السلامة في مغادرة المكان والفرار من الباب الخارجي طالبا النجدة منها، دون البحث عن المقاومة والدفاع الذي يخشى عاقبته، لكن تبعته امرأة العزيز وقدت قميصه من دبر، وما لبثا أن أدركا الباب الخارجي حتى وجدا زوجها العزيز، فبادرت المرأة بمكرها وكيدها وكذبها بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءً، إلا السجن أو العذاب جزاءً وفاقا على فعلته[12].

فأجاب يوسف مدافعا عن نفسه حينما اتهمته بقصد السوء، أنها هي التي راودته عن نفسه فامتنع منها فتبعته وقدت قميصه[13].

هنا جاء إثبات براءة يوسف على لسان شاهد[14]، من أهلها أوجب من الحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة[15].

ولعل تقنية الاستدلال هنا كان لها تأثير واضح و فعال على الإثبات والحجية في سورة يوسف بصفة عامة وفي تبرئة هذا النبي بصفة خاصة، كونها انصبت على كيفية تمزيق القميص التي بادرت باعتمادها المرأة لتكون دليلا وحجة لها لا عليها بزعمها أنها حاولت إمساكه لمعاقبته، وإلا كيف تبادرت فكرة إلى ذهن الشاهد الذي هو من أهلها وأغلب الظن أنه يظن صدقها ويريد إقامة الدليل على ذلك، لكن وقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[16].

والجدير بالذكر أن الشاهد استخدم القياس والاستدلال معا ليتوصل إلى نتيجة منطقية مقنعة يتقبلها العقل السليم وهي أن نبي الله يوسف عليه السلام برئ من هذه التهمة، فالآية الكريمة أثبت عدة حقائق تأكد على وجود نسق الإقناع في السورة لعل من أبرزها:

- أن فرار يوسف عليه السلام هربا من المرأة حجة ودلالة واضحة على استجابته لبرهان ربه الذي أراه إياه لكي يصرف عنه السوء والفحشاء الذي تدعوه إليه هذه المرأة.
- أن تمزيق المرأة لقميص يوسف كان حجة لها ابتداءً وعليها انتهاءً لما عرف موضع التمزيق أنه من الخلف وهذا كان دليلا قاطعا على جرم امرأة العزيز وكذبها وبراءة لنبي الله يوسف عليه السلام من هذا الجرم.

- أن قاعدة الحكم في قضية تبرئة يوسف وتظهير جرم المرأة وكذبها كانت إلهام الله تعالى للشاهد بقضية تمزيق القميص إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل.

من هنا استخدم مبدأ الحكم بالقياس والقرائن والاستدلالات، فصار القميص قاعدة أساسية منطقية مقنعة بني عليها حكم براءة يوسف عليه السلام.

ثانيا: دلائل عصمة النبي يوسف وبراءته من الغواية :

من خلال ملاحظة الجيدة لآيات سورة يوسف يتبين لنا عظمة وجلال المعاني التي تحملها هذه الآيات إذ أنها تكتنز بداخلها مواعظ عظيمة تحمل معاني وحججا قاطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، وذلك في قوله تعالى: ((قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ))[17]

هذه الآية تعكس مقابلة دواعي الغواية الثلاثة بدواعي العفة الثلاث، وتثبت عفة النبي يوسف عليه السلام، فهي كغيرها من آيات القرآن الحكيم تصور لنا صراعا بين جند الرحمان وجند الشيطان وتخاطب العقول والعواطف معا لهداية الإنسان إلى الفلاح والخير[18].

ولقد وردت في سورة يوسف عدة دلائل وحجج تثبت قطعا عصمة النبي يوسف عليه السلام من أبرزها :

- امتناع يوسف الشديد عن الرذيلة ووقوفه أمام امرأة العزيز بعزم وصلابة وقوله في سياق الآية: ((قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ....))[19].
- فرار يوسف من الحصار الذي تعرض له لما غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت هيت لك ، والدليل في سياق الآية: ((وَاسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ....))[20].
- تفضيل يوسف عليه السلام للسجن على ارتكاب الفاحشة بقوله في سياق الآية: ((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ))[21].
- ثناء الله عز وجل وتأكيد صلاح نبيه يوسف في مواطن عديدة من السورة منها قوله: ((إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ))[22]، وقوله تعالى: ((أتيناه حُكْمًا وَعِلْمًا))[23].
- إتيان الشاهد بحجة قاطعة مثبتة لبراءة يوسف والدليل في قوله تعالى: ((وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا))[24].
- اعتراف المرأة ببراءته وعفته والدليل ما جاء في الآية الكريمة: ((وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ))[25].
- التجاء النبي يوسف عليه السلام للاستغاثة بربه ليسلم من كيد النساء والدليل في قوله تعالى: ((فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ))[26].
- دخول يوسف عليه السلام السجن لدفع مقالة الناس أصدق برهان على براءته والدليل في قوله تعالى: ((ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ))[27].
- عدم خروجه من السجن حتى تبرأ ذمته من التهمة والدليل قوله: ((ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ))[28].
- الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ويتجلى ذلك في قوله تعالى :

((قَالَتِ امْرَأَتُ العَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ))[29].

المطلب الثاني: دلائل الإقناع في أواخر السورة :

وردت في أواخر آيات سورة يوسف سبعة تعقيبات تجلت فيها القيمة الحجاجية للسورة كاملة وهدفها الإقناع.

التعقيب الأول:

يتجلى في مخاطبة الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم واطلاعه على قصة وأخبار قصة يوسف التي تعتبر من أنباء الغيب الذي لا يعلم به إلا الله تعالى على اعتبار أن أحداث قصة يوسف عليه السلم وقعت مند أكثر من 23 قرنا، وكان عليه الصلاة والسلم لا يقرأ ولا يكتب[30]، والدليل قوله تعالى : ((ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ...))[31].

قال أبو جعفر: يقول تعالى في ذكره: هذا الخبر الذي أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه

السورة (من أنباء الغيب)، يقول: من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه.

فالوحي إذا مصدر يقيني من مصادر العلم والمعرفة لا يخطئ أبدا ولا مجال لإنكاره، لأنه يحمل في مضمونه مؤيدات صدقه وشواهد وقوعه وصحته[32].

التعقيب الثاني:

كل الحقائق التي أوردتها سورة يوسف تؤكد صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته لأنه لولا وحي من الله لنبيه محمد لما بلغتنا قصة يوسف عليه السلام، بالرغم من تكذيب كثير من الناس وإعراضهم عن هذه الحقيقة ومحاولتهم إنكارها ومجادلة حول حقيقة قصة يوسف والدليل قوله تعالى: ((وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ))[33].

وهذه حجة بالغة لا تقبل النقاش لأنها كلام الله العليم الخبير الذي وسع علمه كل شيء.

التعقيب الثالث:

يتجلى هذا التعقيب في أن قصة يوسف تحكي حجة تنزه النبي صلى الله عليه وسلم من أي غرض مادي دنيوي وهو سبب الذي جعل المعاندين الذين يريدون الحياة الدنيا ويسعون ورائها يعارضون رسالته ودعوته، ودليل صحة هذا التعقيب في قوله تعالى: ((وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ))[34]

التعقيب الرابع:

يتعلق هذا التعقيب بالبراهين والبيانات الموجودة في القرآن الكريم بصفة عامة وفى سورة يوسف بصورة خاصة التي تدعوا إلى الخير والطريق المستقيم، ومع ذلك فإنَّ الكثير منا يعرضون عنها، وهناك أدلة كثيرة على ذلك منها قوله تعالى : ((وكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ))[35]

التعقيب الخامس:

جاء هذا التعقيب بأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس حقيقة الطريق الذي يسير عليه في الدعوة إلى الله والدليل قوله تعالى: ((قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أُدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ))[36]

وقوله تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ))[37]

بالإضافة إلى ما جاء في الآية 109 من سورة يوسف من استفهام حجاجي أفاد تقرير واثبات الأمم المكذبة ووجوب الاعتبار بما حدث لهم.

التعقيب السادس:

يتعلق هذا التعقيب بالصبر عند اشتداد المحن مهما طال الزمن عليها فلابد أن يأتي الله بعدها بالفرج، فلقد امتدت محنة يوسف علية السلام مدة طويلة ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له، فلا يأس من رحمة الله ولا قنوط، فالأمر كله لله سبحانه الذي لا يعجل لعجلة عباده ((حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُ بَأْسُنَا عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ))[38]، والظن هنا بمعنى اليقين.

التعقيب السابع:

ختم الله تعالى آيات سورة يوسف بقوله:" لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصَهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ)) [39].

ومعنى في ذلك أن قصة يوسف عليه السلام ما ذكرت إلا لتكون عبرة وموعظة وحجة يدركها وينتفع بها وبمقاصدها أصحاب العقول الذين يستعملون عقولهم ولا يعطلونها ويتدبرون في آيات القرآن الكريم ويستشعرونها ليجدوا الأدلة القاطعة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته، وهذا ما تأكده الآية 2 من سورة يوسف بقوله تعالى ((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) ، والتي جاءت مرة ثانية في ختامها لتأكد على أهمية استعمال العقل بشكل علمي وموضوعي، من أجل ادارك حقيقة القرآن وما يحمله من تفصيل وهدى ورحمة للمؤمنين به[40]، فالإيمان شرط أساسي للانتفاع بآيات التنزيل الحكيم وحكمها وأحكامها وحججها وبراهينها ومواعظها.

فمعرفة القيمة الحجاجية والإيحائية والدلالية لسورة يوسف تمكن من إعطاء صورة واضحة للإسلام كما جاء به رسل الله جميعا وما تغرسه من فكرة التوحيد في النفس وما تنتزعه من معتقدات خاطئة منافية للعقيدة الصحيحة المبنية على دلائل عقلية منطقية يقبلها العقل السليم وهو المغزى الحقيقي التي تعتبر قصة يوسف عليه السلام نموذج له.

الآليات الحجاجية في سورة يوسف :

أ / الآليات البلاغية :

الاستعارة الحجاجية :

يقول الله تعالى: ((إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَد عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمس والقَّمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ))[41] استعارة مكنية،وصف فعل غير العاقل بوصف العاقل حيث شبه الكواكب بقوم عقلاء ساجدين، وحذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السجود واسند للمشبه، والسجود قرينة تخييلية، قال ابن عباس: ((رؤيا الأنبياء وحي والأحد عشر كوكبا هم إخوته الأحد عشر نفرا، والشمس والقمر أبوه وأمه، لأن الكواكب لا تسجد في الحقيقة، فالسجود هنا للتحية وكان بمنزلة المصافحة وانتقل من العبادة إلى التحية، والتقدير وهو سجود غير حقيقي ولكن يكون على شكل انحناء فقط أما السجود لله تعالى وحده))[42].

قال تعالى : ((وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تصِفُونَ))[43] استعارة وصف بالمصدر المبالغ كأنه نفس الكذب وعينه، فالدم الذي في القميص ليس حقيقي من جهة مخالفة لونه لون ما هم فيه وجاءوا على قميصه بدم كذب أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تماثلوا عليه من المكيدة، وهم أنهم عمدوا على سلخه فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوا فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه ((بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تصِفُونَ))[44]

قال تعالى : ((فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ))[45].

قال الله تعالى: ((فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ)) أي لما سمعت باغتيابهن، هنا استعارة المكر للغيبة، أي أنهن أخفين مكرهن كما تخفى الغيبة، فهذا دليل على كيد النسوة ليصل الخبر إلى زوجة العزيز ويكون سبب في انفعالها وتعرض عليهن يوسف عليه السلام ليرونه، فالدافع هو إغضاب امرأة العزيز لرؤية جمال يوسف عليه السلام .

قال الله تعالى: ((وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)) بمعنى جرحن أيدهن دون الشعور من شدة اندهاشهن بجمال يوسف عليه السلام، استعار لفظ قطعن عن الجرح، فهي استعارة تجعل المتلقي يتصور موقف اندهاش النسوة وجرح أيدهن دون شعور بالألم دليل على الانبهار والدهشة فهي حجة تثبت جمال سيدنا يوسف عليه السلام .

الكناية ودلالاتها الحجاجية :

قال تعالى: ((اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ))[46].

اقْتُلُوا يُوسُفَ ← يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

مقدمة الحجة ← نتيجة

كناية عن المحبة المحبة الخالصة، فقتل أخيهم والتخلص منه تعد مقدمة لنتيجة واحدة وهي خلو وجه أبيهم فيقبل عليهم .

قال تعالى : ((وَكَذَالِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ))[47].

وَكَذَالِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ

مقدمة الحجة

نتيجة الحجة

((يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ)) كناية لحجة بالغة تبين فيها علو مقام يوسف في مصر بعد أن أنعم الله عليه وأصبح عزيز مصر.

الروابط الحجاجية :

- الفاء :

قال تعالى: ((قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ لَهُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنبِئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ))[48].

قال تعالى: ((قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ))[49].

قال تعالى: ((وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))[50].

قال تعالى: ((جَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ))[51].

قال تعالى: ((وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ))[52].

قال تعالى: ((فلما سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ لَهُنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ))[53].

قال تعالى: ((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَا يَدْعُونَنِي إِلَيهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ))[54].

- إذ :

قال تعالى: ((لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ للسَّائِلِينَ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُ إِلَى أَبِينَا مَنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ))[55].

قال تعالى: ((ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ))[56].

- لكن :

قال تعالى: ((واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرونَ))[57].

يقول هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وأعرض عن طريق الظالمين، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماما يقتدى به في الخير، وهذا هو التوحيد لا لاه إلا الله وحده لا شريك له ،" ولكن أكثر الناس لا يعلمون أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[58].

قال تعالى: ((وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ))[59]

خاتمة :

لقد جاءت قصة يوسف عليه السلام في سورة كاملة دليلا واضحا على هذه الحقيقة، إذ ظهر فيها من الحكم والمواعظ والعبر شيء كثير لا يمكن استقصاؤه لتعذر الإحاطة بمعاني كلام الحكيم العليم في القرآن الكريم.

وفي التعقيب الأول تأكيد على حوادث القصة بقوله تعالى: ((ذلك من أنباء الغيب نوحيهِ إليكَ وما كنت لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون))

وفي التعقيب الأخير تقرير على حوادث القصة ووقائعها بقوله تعالى: ((لقد كان في قَصَصهم عِبرَة لأولي الألْباب ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكن تصديق الذي بين يَدَيه وتفصِيل كلّ شيءٍ وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون))

1- حليمة بوالريش، أفعال الكلام في الخطاب القرآني سورة البقرة أنموذجا ـ دراسة تداولية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في اللسانيات العامة، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2012 م، ص 38.

و ينظر إلى :

Grand Larousse Universe, paris cedex, tome 12, p 8412

2- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، المجلد [11]، ط[3] ، 1994 م، 253 . 352.

3- الزمخشري محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية بيروت، ط[1]، 1998م ، ج[1]، ص 303.

4- نفس المرجع، ص327.

5- سورة آل عمران، آية 140.

6- سورة الحشر، الآية 07.

7- مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط[1] 2008 م، ص 25.

8- مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، ص 16.

9 - CH.PERLMAN,andl.Olbercts tyteca: THE NEWrethoric "a trestise on argumentation",University of noterdame press,1971,p45.

10- ت :عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص457.

11- سورة يوسف، الآيات (من 25 إلى 28).

12- عليش متولي بدوي البني: موسوعة تفسير سورة يوسف، الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، لجنة آسيا، دولة الكويت، 2010، ص 656.

13- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1418هـ/1998، ص 246.

14- ذهب أغلب المفسرين إلى القول بأن الشاهد هو ابن عمها، أنظر صفوة التفاسير، ص 44.

15- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج5، ص 275.

16- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ص 44 .

17- سورة يوسف، الآية 23.

18- الصابوني، صفوة التفاسير، ص49 - 50.

19- سورة يوسف الآية 23.

20- سورة يوسف الآية 25.

21- سورة يوسف الآية33.

22- سورة يوسف الآية 24.

23- سورة يوسف الآية 22.

24- سورة يوسف الآية 26.

25- سورة يوسف الآية 32.

26- سورة يوسف الآية 34.

27- سورة يوسف الآية 35.

28- سورة يوسف الآية 50.

29- سورة يوسف الآية 51.

30- عبد الحميد محمود طهماز، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ص 119.

31- سورة يوسف الآية102.

32- عبد الحميد محمود طهماز، الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف، المرجع سابق، ص 120.

33- سورة يوسف الآية 103.

34- العلمي الغزي، مؤتمر تفسير سورة يوسف، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، د ت ، ج1، ص 122.

35- سورة يوسف الآية 105.

36- سورة يوسف الآية 108.

37- سورة يوسف الآية 109.

38- سورة يوسف الآية 110.

39- سورة يوسف الآية 111.

40- عليش متولي بدوى البني، موسوعة تفسير سورة يوسف، المرجع السابق، ص 129 .

41- سورة يوسف الآية 04.

42-- فاطمة الزهراء مالحي، حجاجية الخطاب القرآني سورة يوسف أنموذجا، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد الرابع عشر2018، ص 267.

43- سورة يوسف الآية 18.

44- فاطمة الزهراء مالحي، حجاجية الخطاب القرآني سورة يوسف أنموذجا، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد الرابع عشر2018 ، ص 262 . 267,

45- سورة يوسف الآي31.

46- سورة يوسف الآية09.

47- سورة يوسف الآية 56.
48- سورة يوسف الآية 14.
49- سورة يوسف الآية 17.
50- سورة يوسف الآية 18.
51- سورة يوسف الآية 19.
52- سورة يوسف الآية 26.
53- سورة يوسف الآية 31.
54- سورة يوسف الآية 33.
55- سورة يوسف الآية 07.
56- سورة يوسف الآية 102.
57- سورة يوسف الآية 38.

فاطمة الزهراء مالحي، حجاجية الخطاب القرآني سورة يوسف أنموذجا، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة، العدد الرابع عشر2018 ، ص 267 .

58- المرجع نفسه، ص 270 .
59- سورة يوسف الآية 21.